المولى محسن الفيض الكاشاني
(طاب ثراه)

كلمات طريفة في الأخلاق الإلهية

دار البلاغة



كلمات طريفة

في

الأخلاق الإلهية

المولى محسن الفيض الكاشاني
(طاب ثراه)

كلمات طريفة في الأخلاق الالهية

دار البلاغة

الطبعة الأولى

١٩٩٧م - ١٤١٧هـ

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥١ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

كتاب كلمات طريفة في منشأ اختلاف الأمة المرحومة
مـن طرايـف أفكـار أبكـار أسـوة العلمـاء
الـراسخيـن وقـدوة العرفـاء
الشامخين مولى الكاشاني
محسـن الفيـض
طاب ثراه.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سبحان الـذي خلـق الإنسـان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه فإذا هو خصيم مبين، ثم لا يزالون مختلفين ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] .

نحمده على السراء والضراء، ونشكره في الشدة والرخاء، ونصلي على سيد الأنبياء وعترته الأوصياء.

أما بعد

فيقـول الفقيـر إلـى الله فـي كـل موطن محمد بن مرتضى المدعو بمحسن، أيده الله في أولاه للتزود لأخراه: هذه كلمات طريفة، ومقالات شريفة. فيها إيقاظات للراقدين في الشبهات،

---

(١) سورة هود: الآية ١١٩ والفقرات السابقة كلها مقتبسة من القرآن الكريم لكن مع شيء من التصرف يحتمل وضع ثم مكان الواو وشبهه.

وإيماضات، للمتراقدين في الظلمات، وإشارات يقام بها القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر، وبشارات يبشر بها المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على الخطر. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم، وهي لهم ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1].

إيقاظ

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه ما اختلف أصناف كون من الأكوان اختلاف نوع الإنسان. فإن منه آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، ومنه نمرود وشداد وآل فرعون وآل هامان. وشتان ما بين الصنفين وشتان.

ثم بينهما أصناف لا تحصى من أهل الجنان وأصحاب النيران، في كل قرن وأوان، على اختلاف مراتبهم في الضلالة والهدى، ولكل فرعون موسى، ولكل إلى مستقره حركة، وبإزاء كل درجة دركة.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٩.

يزداد هؤلاء من الله قرباً ودنواً، وهؤلاء بعداً وعتواً. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾[1].

إيمـــاض

إن من أهل الشقاء لمن يبطن شقاوته فيلتبس أمره على الذين لا يعلمون، ثم إنه ليتوغل في الخفاء لتوغله في الشقاء، فيذهب على الألباء أولي الذكاء حتى أنهم ليحسبون أَنهم مهتدون، لشدة الشبه بين الفريقين، وكثرة الشبه في النجدين.

وليس الشأن بالإذعان، لمكان النفاق في نوع الإنسان.

وكلما كان أحد المتقابلين من الآخر أبعد كان الاشتباه أكثر وأشد.

فأرباب الرياسة الدينية أمرهم في الأغلب غير مبين لمكان المترئسين. وهذه هي المصيبة الكبرى في الدين، والفتنة العظمى لبيضة المسلمين، وهي التي أوقعت الجماهير في الحرج وأعيتهم عن سبيل المخرج، إذ من الواجب اتباع الأذناب للرأس، والرأس قد خفي في نفاق الناس. ولأجل ذلك تقاتل التي تبغي

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣١.

حتى تفيء إلى أمر الله.

إشـــارة

إذا كان أمر النبوة ظهورياً، والزمان نورياً، كان الفرق بين الفريقيـن فـي الأكثـر صورياً، وتميز المؤمن من الكافر ضرورياً لمكان الامتحان، الذي يكرم به المرء ويهان.

إلا أن مخايل النفاق لا يهتدي إليها إلاّ الأقلون.

ومخاتل شياطين الإنس لا يعرفها إلا المبصرون.

ومعرفة هذا هي المهم، وهي الأمر المدلهم. إنها أساس الاهتداء في غير زمان النور، ومناط الاقتداء في ساير الدهور. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

تنبيـــه

هذه المعرفـة بعـد معرفـة الله سبحانه هي أهم المعارف. ولهـذا سمـي صاحبها في كلمـات أهـل البيـت (عليهم السلام) بالعارف، وجعل أمر التشيع في الدين عظيماً، وثوابه جسيماً.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.

بل جعل النجاة محصورة فيه والإنسانية مقصورة عليه «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وِلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2].

تبصــرة

إنك إذاً لم تعرف العالم من المتعالم، والمحق من المبطل، والرئيس من المترايس، فيمن يُقتدى في دينك وأحكامه، وممن تأخذ ما افترض الله عليك في حلاله وحرامه، وإنك لتعلم أنهم لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور، وأن نوعهم باق مستمر على كر الدهور، وأنهم يلبسون الحق بالباطل. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3]. ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد الآية: ٧.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٧١، ٧٢.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٩.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٤٦.

بـــلاغ

إن الشقي إذا كان في لباس أهل السعادة كان ضرره أشد في الـديـن، وفتنتـه أعظـم فـي المـؤمنيـن. قـال أمير المـؤمنيـن (صلـوات الله عليـه): «قصـم ظهـري رجـلان: عـالـم متهتـك، وجاهل متنسك».

هذا قوله في المؤمن فما ظنك بالمنافق المبتدع، العليم اللسن المتصنع، فلا جرم يكون منه خراب الـديـن، وبـوار المسلمين.

﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ والَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾(١) .

تذكيـــر

إنـك لقـد علمـت وتحققـت مـا جـرى بيـن صحـابـة نبينـا (صلـى الله عليـه وآلـه) بعـده مـن تلبيسهـم الأمـر علـى النـاس، وإلباسهم لباس البؤس والبأس بعد ما سمعوا النصوص على

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩، ١٠.

الخصوص، مرة بعد أولى، وكرة غب أخرى. فجحدوا ما عملوه، وبدلوا ما سمعوه، وأنكروا ما حق في أعناقهم وأعناق المسلمين من حق مولاهم أمير المؤمنين. غلب عليهم حب الرياسة والهوى، واشتعل في قلوبهم نائرة الحسد والبغضاء، فعادوا إلى الخلاف الأول. ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(١).

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾(٢).

قصة

قعدوا لنصب الخليفة، وعقدوا البيعة في السقيفة. وما أدراك ما السقيفة، ثم ما أدراك ما الخليفة.

أعرضوا عن تغسيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتكفينه ودفنه والفجيعة به، واشتغلوا بتهيئة أسباب الإمارة لأنفسهم، وتهييج ذوي الأحقاد على سيد العباد، الذي إنما

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء الآية: ٥٤، ٥٥.

أسلموا خوفاً من سيفه وقتاله بعد أن قتل آباءهم وأبناءهم في مواقف نزاله.

فحملوا عمود الخلافة، ونبذوا العقود بعد تلك الخصافة، وادعوا التآمر على عباد الله، وتموا زوراً وبهتاناً بخلفاء رسول الله، بغير قدم راسخ في علم، ولا سبق في فضل. بلى قد شاب قرنهم في الشرك والآثام، وابيض فودهم في عبادة الأصنام.

توسلوا إلى ما ادعوا بالخدايع والحيل والممالاة، من أرباب الدخل والدغل. من الذين مردت على النفاق عيوبهم، وقالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فأولى لهم ثم أولى لهم بما كانوا يكفرون. ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[1] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[2].

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٩.

(٢) سورة البقرة الآية: ٨٦.

ذنابــة

ثــم قــد سمعــت كيــف تسافــل الأمــر حتى تقمصها علوج بني أميــة الشرابــون للخمــور، المعلنــون بالفجــور، المستعلنون بلبس الحرير، ولعب الطنابير، قاتلوا ذرية المصطفى، المتدينون بسب المرتضى.

ثم تلقفها بنو العباس السالكون مسالك أولئك الأرجاس.

فيـا لهـا مـن رزيـة مـا أعظـم مصيبتهـا فـي الإسـلام والمسلميـن. ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ولا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[2] ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦١.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٦٥، ١٦٦ و١٦٧.

إستعـــاذة

نعـوذ بالله مـن قـوم حذفـوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب، والنبي وساقي الكوثر في مواقف الحساب، ولظى الطامة الكبرى ونعيم دار الثواب.

أراموا غير باب الله باباً؟ أم اتخذوا من دون الله أرباباً؟ وفيهم أهل بيت نبيهم، وهم أزمة الحق، وألسنة الصدق. شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، ومعدن العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا. خزاين أسرار الوحي والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل. الأمناء على الحقايق، والخلفاء على الخلايق.

أولو الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأولو الأرحام الذين أمروا بصلتهم ، وذوو القربى الذين أمروا بمودتهم، وأهل الذكر الـذيـن أمـروا بمسـاءلتهـم، والمـوالـي الـذيـن أمـروا بمـوالاتهـم ومتابعتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والراسخون في العلم الذين عندهم علم القرآن كله تأويلاً وتفسيراً.

أحد السببين اللذين من تعلق بهما فازت قداحه وثاني الثقلين اللذين من تمسك بهما أسفر عن حمد السرى صباحه.

السادة القادة الذادة، الدعاة الهداة الحماة، وسفينة النجاة. مفزع العباد في الدواهي، ومفرهم في الأوامر والنواهي.

إذا نطقوا نطقوا بالصواب، وأتوا بالحكمة وفصل الخطاب، وعرفوا كيف يؤتى البيوت من الأبواب، وهدوا من استهداهم إلى ما يحتاج إليه في يومه وغده. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1].

منقبــة

هم أعيان الوجود، وأمناء المعبود، وأبواب الملكوت، ونواب الجبروت، وحجاب اللاهوت.

أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وعروته الوثقى. سادات البشر، والأنوار الأربعة عشر. أئمة من اتقى، وبصاير من اهتدى.

سيرتهم القصد، وسنّتهم الرّشد، أبداهم الله من نور عظمته، وولاهم أمر مملكته، وارتضاهم لغيبه وحكمته، وأخدمهم ملائكته المقربين، واختارهم على علم على العالمين.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩٠.

من أطاعهم فقد أطاع الله وراقبه، ومن عصاهم فقد جاهد الله بالعناد وحاربه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[1].

وصل

هم الكواكب العلوية المشرقة من شمس العصمة الفاطمية في سماء العظمة المحمدية، والأسرار الإلهية المودعة في الهياكل البشرية، والأغصان النبوية اليانعة في الدوحة الأحمدية، والذرية الزكية الهادية المهدية، لا شرقية ولا غربية. أولئك هم خير البرية.

تصاغرت لعظمتهم العظماء، وتقاصرت عن علمهم العلماء، وعجزت عن وصف شأنهم البلغاء، وكلت عن مدحهم ألسنة الخطباء، ولكنت عن ثنائهم ألسنة الشعراء، وما عسى أن تبلغ المدائح، وإلى أين تنتهي الأفكار والقرايح قدر قوم أثنى عليهم القرآن، ومدحهم الرحمٰن، وخلق لأجلهم السماء

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٩.

والأرض ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[1] .

تكملـــة

قـد صعـدوا ذرى الحقـايق بأقدام النبوة والولاية، ونوروا سبع طبقات أعلام الفتوة بالهداية.

فهم ليوث الوغى، وغيوث الندى، وطعناء العدى.

وفيهم السيف والقلم في العاجل، ولواء الحمد والعلم في الآجل.

أسبـاطهم حلفـاء الديـن، وخلفاء النبيين. مصابيح الأمم، ومفاتيح الكرم، والسنام الأعظم.

الأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارهم، ويقتدون بآثارهم.

فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما شاهدوا منه الوفاء.

روح القـدس فـي جنـان الصـاغـورة ذاق مـن حـدائقهـم لباكورة.

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٤.

وشيعتهم الفرقة الناجية والفئة الزاكية، صاروا لهم ردءاً وصوناً، وعلى الظلمة إلباً وعوناً، وسينفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظى النيران، يظهر حجة الله على الخلق، والسيف المسلول لإظهار الحق: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾(١).

بشـــارة

فطوبى لمن استمسك بعروة هذا الكلام، وصلى خلف هذا الإمام. فإنه يقف على معاني الكتاب المسطور، والرق المنشور، ثم يدخل الى البيت المعمور، والبحر المسجور. يخرق الحجاب، ويظهر العجاب، ويأتي باللباب، وينطق بالصواب، ويفتح خزاين الغيوب، ويفتق دفاين القلوب. يرفع الراية المحمدية، ويروج الدولة الأحمدية.

يقوم بالسيف فيمحو الزيف والحيف ، يمهد الأرض، ويحيي السنة والفرض.

---

(١) سورة النور الآية: ٥٥ .

هو بقية الأبرار، وخلاصة الأطهار، وخازن الأسرار، ووارث الأنوار، ومنتهى الأدوار. خاتم الأوصياء، وخاتم الأسخياء، وصاحب الكرة البيضاء، والسبب المتصل بين الأرض والسماء.

بيمنه رزق الورى، وببقائه ثبتت الأرض والسماء.

خليفة النبيين، وغوث المؤمنين، ومستودع علم الأولين والآخرين، ومحيي معالم الدين، وقاصم شوكة المعتدين. هادم جدار الشرك والنفاق، وماحي آثار الغيّ والشقاق، جامع الكلمة على التقوى، والباب الذي منه يؤتى، المهدي الموعود، وبقية الله المقصود من الوجود ﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾[1] ﴿وَنُرِيْدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِيْنَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾[2].

نـــذارة

إنما يشرق ظهوره ويتم نوره بعد بلايا كثيرة، ورزايا عسيرة

(١) سورة هود الآية: ٨٦.

(٢) سورة القصص الآية: ٥، ٦.

وفتـن هائمـة، ومحـن قائمـة، وخطـوب مزعجـة، وكـروب مدلجة، يجثون فيها على الركب، ويودون لو ذهبوا مـع مـن ذهـب، مـن ظهـور الآيات وإقبال الرايات، وهرج في البلاد ومرج بين العباد، وخروج ستين كذاباً يدعون النبوة، وخروج اثني عشر طالبياً يدعون الإمامة، وزلزلة عظيمة ببغداد يخسف بها العباد، ومـوت أَحمـر ومـوت أَبيـض، وخسـوف في غير زمانه، وكسوف في غير أَوانه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر، وفشـو الشر وهتك النساء، وكثرة الزنا وسفك الدماء، وأكل الربا وشـرب الخمـور، وجلـب السرور، ولبس الحرير، وطرد الفقير، وقطع الأرحام، وظلـم الأيتام، وتغيير الأحكـام، وترك الصلوات، واتباع الشهوات، وتشييد البنيان، وإمـارة النسـاء والصبيـان، وتشبـه الـرجـال بـالنسـاء والنسـاء بالرجـال، وخـروج الدجـال، وركوب الفروج على السروج، وبـروز يأجوج ومأجوج، وظهـور السفيانـي وفتنـة اليمانـي، وإخـراج دابـة الأرض ليميـز بعضهـم عـن بعض ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم

﴿بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾[1].

والدابة أمير المؤمنين، والآيات الأئمة، والحشر الرجعة. كذا عن حجج الله فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله.

تحميد

ما عسى نطيق من حمد ربنا، ومتى نقدر معشار ما وجب علينا من أداء شكر بارينا، إذ هدانا إلى الصراط المستقيم، وسلك بنا سبيل المنهج القويم، وجعل هوانا في آل نبيه لما اختلفت الأهواء، ورأينا فيهم حين اضطربت الآراء، وولاءنا لهم إذ تشعبت الولاء، ودعاءنا بهم إذ تفرق الدعاء.

عمر أسرار سرايرنا بسريان محبتهم، وقلب قلوبنا وقوالبنا إلى قبلة متابعتهم، ووجه وجوهنا تجاه وجهتهم، فاتخذنا هداهم شريعة ومنهاجاً، ومذهبهم سلماً إلى نيل المطالب ومعراجاً، وحبهم علاجاً لداء هفواتنا إذ اختار كل قوم علاجاً، وصرّحنا بموالاتهم إذ ودى غيرنا أوداجاً، فهم صلوات الله وسلامه عليهم عدتنا وعتادنا، وذخيرتنا الباقية في معادنا، وهم كبراؤنا في الدّنيا

---

(١) سورة النمل الآيات: ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥.

والدّين، وشفعاؤنا في الشافعين.

بهم نتولى ومن أعدائهم نتبرأ تقرباً إلى الله. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانا لِهَذا وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾[1].

إرشـــاد

يـا مبتغـي طـريـق السـداد، ومـرتجـي الفـوز والفـلاح فـي المعاد، اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، تعالوا معي إلى اتباع سنن الهداة، وشق أمواج الفتن بسفن النجاة لعلكم تفلحون، واتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا مـن قبـل وأضلـوا كثيـراً وضلـوا عـن سـواء السبيـل، ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِـي مُسْتَقِيمـاً فَـاتَّبِعُـوهُ ولا تَتَّبِعُـوا السُّبُـلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَبِيلِهِ﴾[2].

عرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، فإنما الفلاح لمن نهض بجناح، أو استسلم فأراح، ذروا الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً. وغرتهم الحياة الدنيا، قد باض الشيطان وفرخ في صدورهم، ودب ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم ونطق

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

بألسنتهم، فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل. ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[1].

تبصـــرة

إن بغض أعداء الله واجب كحب أوليائه، وهل الإيمان إلا الحب والبغض. ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[2] قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتوالي أولياء الله والتبري عن أعداء الله» ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُواْ بِٱللّهِ وَحْدَهُ﴾[3].

تذنيـــب

وأما اللعن والطعن وسوء القول في الظالمين فليس أيضاً ببدع في الدين، ولا بمتنكر لدى المستبصرين. بل فيه إرشاد

---

(١) سورة النمل الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحجرات الآية: ٧.

(٣) سورة الممتحنة الآية: ٤.

للعباد، وإيقاظ لذوي الرقاد. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة بهم وباهتوهم لئلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة.

والله سبحانه قد لعن الكافرين والمنافقين، وطعن في الجاحدين والمكذبين بيوم الدين، ودعا عليهم في غير مكان حتى قيل إنه ثلث القرآن. ولربما خص ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[1].

بل صرح بالاسم ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[2].

تأييد

أوما سمعت ما ورد في شأن دعاء صنمي قريش أن الداعي به كالرامي مع النبي (صلى الله عليه وآله) في بدر وأحد وحنين

---

(١) سورة المدثر الآية: ١٨، ١٩.

(٢) سورة المسد الآية: ١، ٤.

بألف ألف سهم؟ ولعل السر فيه أنه لما قصرت يده عن الطعن بالسنان عمد إلى اللعن باللسان، ولما عجز عن النضال بالرماح قاتل معهما برمي سهام اللعن إلى الأرواح.

وهكذا ينبغي أن يصنع مع أصحاب المنكر وأهل الشر ممن يصد عن سبيل الله، وكان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يقنت في الفرايض بلعن جماعة من الأشقياء، وفي النوافل بهذا الدعاء: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾**[1] **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾**[2].

وهم وتنبيه

وأما قول قائلهم: إن كان الرجل في نفس الأمر ملعوناً فما الداعي إلى تلويث لسانك بلعنه؟ وإلا فأنت في لعنه آثم وهو بذلك غير متضرر.

فإن أراد المشتبه شقاوة وإلا فهو كلام مجادل بالباطل ليدحض به الحق، فليجبه مجيب فلا تصل إذاً على رسول الله

(١) سورة محمد الآية: ٢٨.

(٢) سورة محمد الآية: ٢٣.

(صلى الله عليه وآله وسلم) إنه إن كان مستحقاً للصلاة من عند الله تعالى تصل إليه، ولا داعي في تبليغها إياه، وإلا فأنت متجري على الله سبحانه في دعائك منه ما لم يكن ليفعل.

كلا ثم كلا، قد ثبت مثوبات الصلاة عليه، وهي كساير الدعوات من الأسباب المطلوبة التي أَبى الله أن يجري الأشياء إلا بها، تعالت أحكام الله عز وجل من إدراك الأنظار الحاسرة، وتقدس الشرع المطهر من مس أيدي الأفهام القاصرة.

لا والله بل اللعن والطعن بالنسبة إلى مستحقيهما عبادة، كما أنَّ الصّلاة والدعاء بالإضافة إلى أهليهما عبادة، بل مصباح العبادة ومفتاح السعادة لعن أعداء الله، والجهاد معهم مهما أمكن، وكيفما أمكن إذا أمن الخطر، وسلم من الضرر. ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(١) ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء الآية: ٩١.

(٢) سورة التوبة الآية: ١٤، ١٥.

تمهيد

ثم إن من الجاحدين الضالين المكذبين من أنكر الحق بباطنه وظاهره جميعاً، فجعل على جحود جنانه من إنكار لسانه علاوة ﴿خَتَمَ ٱللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1].

ومنهم من أقرّ به في باطنه وجنانه، ولكنه أنكره بظاهره ولسانه حسداً وبغياً وعتواً. ﴿وجَحَدُواْ بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[2].

ومنهم من عكس فأنكر بقلبه، وأَقر بلسانه، وهم الذين أَنفسهم يخدعون ﴿إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوْا إِنَّا مَعَكُمْ إِنّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

ومنهم من أقر بمجملات أصول الدين ظاهراً وباطناً، وآمن بها لساناً وجناناً إلاّ أنه في التفاصيل ضل عن سواء السبيل للجاج

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧.

(٢) سورة النمل الآية: ١٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٤، ١٥.

سيرته، واعوجاج سريرته وهؤلاء في المسائل الدينية يتفرقون، وإلى الأقسام الثلاثة فيها يوزعون، و﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[1].

تصنيف

إن الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) الوافي العلم والعمل على أصناف:

فقوم تمسكوا بالثقلين في الأمرين، فسألوا أهل الذكر ما لا يعلمون، وردوا إلى الله والرسول وأولي الأمر ما كانوا فيه يتنازعون، واتبعوا المحكمات، واحتاطوا في المتشابهات، ووكلوا تأويلها إلى الله والراسخين في العلم (عليهم السلام)، وأثبتوا لا ندري في الأحكام، وثلثوا بها الحلال والحرام، فأبهموا ما أبهم الله، وسكتوا عما سكت الله، ولم يزيدوا في التكاليف على ما آتاهم الله، ولم ينقصوا عما كلفهم الله.

فإذا تعارضت عليهم الأخبار عن الأئمة الأطهار قالوا فيها بالخيار، امتثالاً لأولئك الأخيار، فرفعوا بذلك ما رفع الله عنهم من العسر والحرج، وأرادوا لأنفسهم ما أراد الله لهم من اليسر

(١) سورة الكهف الآية: ١٣.

وسهولة المخرج، فسلموا واستراحوا، وأرشدوا وأراحوا. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

تتمة

وبإزائهم قوم غمضوا العينين، ورفضوا الثقلين، وأحدثوا في العقايد بدعاً، وتحزبوا فيها شيعاً، واخترعوا في الأحكام أشياء حكموا فيها بالآراء، وزادوا ونقصوا في التكاليف، وصنفوا فيها تصانيف، جعلوا لله شركاء حكموا كحكمه فتشابه الحكم عليهم بل لله الحكم جميعاً وإليه يرجعون ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

تذييل

ضلوا قاتلهم الله وأضلوا. ترد على أحدهم القضية فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها

---

(١) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ٧٩.

بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً. وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد. أفأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله سُبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أو كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل الله ديناً تاماً فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] (وَفِيهِ تِبْيَان كُلّ شَيْء)[2].

تعالى الله عما يقولون، وتقدس رسوله عمّا يحسبون ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إنّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3].

إبـــلاغ

ثم إنهم لم يثبتوا في اختلافاتهم على ضوابط لا تتعدى، بل سلكوا فيها سبلاً شتى وطرقاً لا تحصى، خربوا بها أكثر من

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٨.

(٢) الموجود في سورة النحل الآية: ٨٩ هو قوله تعالى «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء».

(٣) سورة المجادلة الآية: ١٩

في الأرض، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[1] ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[2].

كل يدعو إلى ما رآه، ويحمل الناس على اتباع هواه، فتشاجروا في الدين، وتشاكسوا مضلين. طعن كل خلف في سلفها، كلما دخلت منهم أمة لعنت أختها بصلفها، أفلتت منهم الأحاديث أن يحفظوها، وأعيتهم السنة أن يعوها، فاتخذوا عباد الله خولاً، وماله دولاً، فذلت لهم الرقاب، وأطاعتهم الخلق أشباه الكلاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[3].

إفتضـــاح

ومن هؤلاء من لم يشتبه عليهم الأمر، بل تبين لهم الحق يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم نبذوا كتاب الله وراء

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٥.

(٢) مقتبسة من الآية الكريمة «ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض» سورة محمد الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٧٥، ١٧٦.

ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وإن كثيراً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

استوقدوا نار العصبية، واستحملوا أوزار الحمية، لعداوتهم الحق وأهله بغياً وحسداً، فأخذوا يبالغون في الإنكار، ولا يرفعون رأساً إلى الاعتبار.

يسمع أحدهم آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً **﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[1].

تشنيع

ومنهم من نصب نفسه على أمور الناس قائماً وليس له، سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بل ارتوى من آجن وأكثر من غير طايل ثم جلس بين الناس متقلداً للفتوى، أو ضامناً للحكم والقضاء.

فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً من رأيه ثم قطع، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ لم يعض على العلم بضرس قاطع، ولم يلجأ فيه

---

(١) سورة لقمان الآية: ٧.

إلى ركن وثيق ، ولا يحسب العلم في شيء مما أنكر، وإن أظلم عليه شيء اكتتم به وستر. يصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾[1] .

تخطئــــة

ومن النـاس مـن اتبـع الثقلين في العلم والأعمال، ولكنه اتخذ سبيلاً إلى الجدال، وأخلد قليلاً إلى الضلال فأخذ يخوض في كثير من الفضول، من الفروع والأصول، يطلب فيهما من البدع ومما لا يقع مسائل، فينسج عليها مما هو أوهن من بيوت العنكبوت دلايل، يقول بالرأي في الكلام، ويقول على الاجتهاد في كثير من مسائل الحلال والحرام، يغرس بذلك شجرة الخلاف، وينشىء به كثرة الاختلاف خلطوا ما سمعوا بما لم يسمعوا فوقعوا فيما وقعوا، بدلوا تبديلاً واتخذوا بين ذلك سبيلاً. ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٦٩ .

(٢) سورة التوبة الآية: ١٠٢ .

تعييـــر

ومـن هـؤلاء قـوم اشتبـه عليهم الأمر اشتباهاً، فحاروا في بيداء آرائهم تياهاً، فصاروا فرقاً، وتحزبوا شيعاً. يطعن بعضهم في بعض، وينقض أحدهم رأي صاحبه كل النقض. فربما تسمع منهم في مسألة دينية أصولية أو فروعية أزيد من عشرين قولاً ذا دلايل، بل لا يكادون يصطلحون في اجتهادياتهم على خمس مسايل ولا أقل، بل ولا خمسة منهم لتوغلهم في الجدل بغير هدىً من الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾(١).

تعجيـــب

كيف يسوغ في سنة العقل أو ملة الشرع أن يكون الاعتماد على العقول المختلفة والآراء الغير المؤتلفة شريعة في الدين ومنهاجاً؟ أو يكون شيء منها لداء الجهل فيه دواء وعلاجاً؟ وغير خاف أن الآراء لا تكاد تتوافق، والظنون قلما تتطابق، والأفهام تتشاكس، ووجوه الاجتهاد تتعاكس. والاجتهاد يقبل التشكيك، ويتطرق إليه الركيك، فيتشبه بالقـوم مـن ليس منهم، ويدخل

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٥٩.

نفسه في جملتهم من هو بمعزل عنهم، كما يرى في أبناء الزمان، ويسمع من الذين خلوا من الإخوان. ومن ثمة ترى المقلدة في غمار آرائهم يعمهون، وفي لجج أقاويلهم يغرقون. بل هم عليها يتقاتلون، وبعضهم دماء بعض يستحلون. (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1].

تأنيـــب

ومنهم قوم زعموا أن لا عمل إلاّ بالإيمان، ولا إيمان إلا بتعلم جدلهم وتعرف قواعدهم، وتقلد ما يسمونه أدلة عقايدهم، وأن لا نجاة لمن لم يسلك سبيلهم، ولم يتقلد علمهم ودليلهم. وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث ودليل، فليس له إلى الإيمان من سبيل، بل ربما يظنون أن الفضيلة مقصورة على تجشم مثل تلك الدلايل لتلك المسائل ولو بالتقليد ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2].

---

(١) الموجود في سورة يونس الآية: ٩٣ «إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون» وكذا الموجود في سورة الجاثية الآية: ١٧.

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٤.

تبكيت

ثم إن قوماً من هؤلاء إذا لم يثقفوا على ما رأوه دليلاً، ولم يجدوا فيه إلى متمسك سبيلاً ادعوا فيه الإجماع وما أدراهم ما الإجماع، فإذا سئلوا عن معناه تتعتعوا بما لا يعلم، وتهمهموا بما لا يفهم.

ومعلوم أن اتفاق الآراء المختلفة بدون أية بينة محال، وتحققه في عصر من الأعصار بدون معجزة بل ومعها مجرد خيال. هيهات هيهات، بل اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، كيف هذا والله سبحانه يقول: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1].

وأنى ذلك وهو عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2].

وإنما أوقعهم في ذلك أصحاب السقيفة في نصب الخليفة، حين أوقدوا على طوايف الجمهور نارهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ

---

(١) سورة هود الآية: ١١٨.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٤ لكن من دون الواو وإنما هي «إن نشأ ننزل عليهم...».

﴿لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾[1] .

معــذرة

لعل السبب في سريان ذلك كله من العامة إلى أصحابنا، وجريانه في إخواننا انتشاء طائفة منهم في بلادهم وبين أظهرهم في زمن الهدنة والتقية، وسماعهم منهم كلمات مموهة ظنية، تلقوها عنهم بالقبول، وسموها بالأصول. ثم لزخرفتها استحسنوا وذا ورم استسمنوا، فمزجوا قليلاً قليلاً بينها وبين ما سمعوا من أئمتهم، فخاضوا في تأويل المتشابهات بقياد العامة وأزمتهم تشحيذاً للأنظار، وترويحاً للأفكار، ولأمور أخر لعل الله يعذرهم فيها بالأعذار، فاتسع بينهم دايرة الخلاف بالآراء، ووسع لهم ميدان الأنظار والأهواء، فوقعوا فيما وقعوا ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[2] .

تعجــب

ثم إني لأتعجب من جماعة من مقلدة أصحاب الاجتهاد، يشترطون الحياة فيمن يجوز تقليده من غير استناد فيه إلى ما يصح

---

(١) سورة محمد الآية : ٢٣ .

(٢) سورة التوبة الآية : ٤٩ .

عليه الاعتماد.

ثم إن قوماً منهم لا يقلدون إلا الموتى ويجحدون اجتهاد الأحياء ماداموا أحياء منافسة وحسداً، وتعلّلاً بأن ثبوته موقوف على إذعان العلماء، فإذا سئلوا كلهم أم البعض وقفت أقدامهم على الأرض، ولعل كلاً منهم يزعم أن لا عالم إلاّ هو، وأن الإذعان المشترط إنما هو إذعانه فقط.

ثم إذا مات الحي عولوا على كتبه في الفتيا، واعتمدوا على قوله في القضاء لزوال الحسد والبغضاء.

أيتغافلون بعد موتهم عما كانوا يعدونه من عيوبهم، أم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، أم لا يميزون بين الحق والباطل والحالي والعاطل لكلال بصايرهم واعتلال ضمائرهم، فيستوي عندهم الصدق والزور، والظلمات والنور.

وليت شعري أي مدخل للموت والحياة في بطلان الفتيا وإصابة الآراء، وهل الحق إلا واحد ومخالفة الأجاحد **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[1].

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٧١.

تشديد

ثم إنهم لتعصبهم الشديد، وغلوائهم في التقليد، وتركاضهم في الضلال البعيد، وتجوالهم في العناد العتيد، اتخذوا أولى الآراء من موتاهم الرؤساء أرباباً من دون الله في مقالهم، مع أنهم وصوهم بأن لا يعتمدوا بعد موتهم على أقوالهم. قالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[1]. ثم ﴿ونَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاْعْفُ عَنْهُمْ وَاْصْفَحْ﴾[2].

وليت شعري من أذن لهم في اتباع رأي من يجوز عليه الخطأ في الرأي، ثم اختيار أحد أقوالهم بالاتفاق والبخت مع اختلافهم السخت[3].

أمن أذن لمجتهديهم في القول بالرأي والاجتهاد، ثم إخراج قول موتاهم عن الصواب والسداد، ﴿ءَآللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٢٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ١٣

(٣) سخت كلمة فارسية معناها الصعب وهي من دون ألف ولام بالأصل وإنما أضافها المؤلف.

عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[1] ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[2] (كلا إنهم لفي غمرتهم ساهون)[3] (ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)[4] ﴿وإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾[5] .

عــذل

ومن الناس من يزعم أنه إذا تعرف لغة العرب، وتعلم النحو والصرف والأدب، وصحح ألفاظ الروايات، وسمع آراء أصحاب المقالات، فهو من أهل العلوم والدرايات. فإن أضاف إليها والعياذ بالله استنباط عقايده وأحكامه من كتب المجتهدين، فقد حصل له رتبة الرياسة في الدين.

---

(١) سورة يونس الآية: ٥٩.

(٢) سورة الطور الآية: ٣٢.

(٣) مقتبسة من الآية الكريمة: «الذين هم في غمرة ساهون» سورة الذاريات الآية: ١١ أو الآية «فذرهم في غمرتهم حتى حين» سورة المؤمنون الآية: ٥٤.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٩١.

(٥) سورة الأعراف الآية: ١٩٣ لكن نصها «... سواء عليكم أدعوتوهم ...» وليس: «سواء عليهم ...».

وهـذا هـو السبـب الأكثـري فـي انتشـاء الخـلاف وكثـرة الاختلاف، كلا أين تعلم اللغة من علم الكتاب، أين القشر من اللباب، وأين تصحيح الأخبار من معرفة السنن، أين الورم من السمن، وأين اختيار أحد الآراء بتوهم الرجحان من معرفة علم الحديث والقرآن ، أين رؤية القهرمان من مجالسة السلطان، أين سماع الألفاظ من ملاحظة الألحاظ، أين الرواية من الدراية، أين الحيرة من الهداية كلا بل ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1] .

لـــوم

ومن هؤلاء من لم يقنع بما يهمه من أمر دينه وإيمانه، بل أراد أن يفهم من أسرار الدين ما ليس فهمه من شأنه، فأخذ في تحصيل ما لا يعنيه ففاته ما يعنيه. ثم اقتبس جهايل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شراكاً من حبال غرور وقول زور.

قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه،

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٠٤.

ونص الآية «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا. . .».

يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع، ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع.

لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه.

أين يذهبون وأنى يؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة. فأين يتاه بهم، بل كيف يعمهون. ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

توقيف

ومنهم من أولع بالنظر إلى كتب الفلاسفة ليس له طول عمره هم سواه، ولا يكون في غيره هواه، من قبل أن يحكم علماً شرعياً أصلياً أو فرعياً، بل وربما لم يسمع قط مما جاء به نبيه في ذويه سوى ما أخذه في صفره عن أمه وأبيه.

لم يتعلم من الشريعة أدباً ولا سنة، ولم يتقلد من صاحبها

(١) سورة الروم الآية: ٢٩، ٣٠.

في علم منة، ولعله لم يميز النافلة من الفريضة مع دعاويه العريضة.

كأنه حسب أن العلوم الفلسفة أعلى من العلوم الدينية، أم حسب أنهم حصلوها بدون الرياضات العملية، كلا إنهم ما استفادوا موادها إلاّ من الأنبياء، ولا نتايجها إلاّ بالمجاهدات الشرعية والعنا. ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾[1].

مؤاخـــذة

ومـن هـؤلاء مـن يتعلـل بـأن غـرضـه مـن ذلـك تحصيـل الاستعداد لفهم الحديث والقرآن، وكذلك سولت له نفسه والشيطان، مع أنه لا يتفرغ للحكمة العملية، لا المنقولة عنهم ولا النبوية، مع أن العمل متقدم على العلم عند كلا الفريقين، شرط له في كلا المنهجين، ولكن الشيطان يصده عنه، فينتقم الله منه فيصرف قلبه عن فهم أسرار الشرايع والأحكام. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ﴾[2].

---

(١) سورة يونس الآية: ٣٥.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٤ وسورة المائدة الآية: ٩٥.

تتميم

لو كان صادقاً في هذه الدعوى لكان يقدم أولاً إحكام أحكام الشريعة، والتأدب بآدابها الرفيعة، وتنوير قلبه عن الكدورات، وتهذيب سره عن القشورات، ثم يخوض في علومهم وآثارهم لينتفع بالاقتباس من أنوارهم، فإنهم تواصوا بذلك، ومنعوا الخوض في الحكمة قبل ذلك، وأن رعاية الترتيب لفريضة في التحصيل ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

تزنير

إن الحكماء الأوايل كانوا أولي فضايل، فلا ينبغي الإزراء بهديهم وهداهم، حاشاهم من ذلك ثم حاشاهم. كانوا أولي خلوات ومجاهدات، لهم في حقايق المعارف إشارات، وعلى دقايق الحكم تنبيهات، وفي علم المبدأ إشراقات. وفي علم المعاد تلويحات. في كلماتهم شفاء لما في الصدور، وفي مقالاتهم نجاة من الجهل والغرور.

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤.

غير أن عباراتهم مرموزة، وإشاراتهم ملغوزة. فما يرد عليهم إنما يرد على ظاهر كلامهم دون مقصدهم ومرامهم، فلا رد على الرمز.

بلى إن علومهم لم تكن بالغة إلى الغاية، ولا عقولهم واصلة إلى النهاية، بل بقي عليهم من العلم بالله واليوم الآخر مما هو وراء طور العقل أشياء، أتمها الرسل والأنبياء. وإنما وصل إليها من هذه الأمة المرحومة من هو منهم قريب. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

تجهيل

ومن الناس من خلط الفلسفة بالكلام، ومزج البرهان بالجدل. لم يحكم علماً قط ولم يأت بخير في عمل، تراه مرة برهانياً ومرة جدلياً، وتجده تارة أشعرياً وتارة معتزلياً، يأخذ من هذا ضغثاً ومن ذاك آخراً.

يأتي مرة بالمعروف وأخرى بالمنكر، ينظر بعقله في أسرار الدين، من غير تهذيب نفس وتطهير، ويتفلسف بفكره في

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٣.

المجادلين من دون تزكية قلب وتنوير. ثم يصحح بنظره اعتقاده، وعلى تحذلقه يكون اعتماده، وإلى آرائه في الدين استناده.

يميل حيثما مال هواه، ولعله يزعم أنه ليس على وجه الأرض عالم سواه. يقول قد حققت في علم الواجب بأبكار أفكاري ما لم يفهم أحد قبل إلى الآن، وتحققت في حدوث العالم بثواقب أنظاري ما لم يتحققه أحد في شيء من الأزمان.

أحسنت! أحسنت! ذهب على العالمين ما وجدته أنت، بلى وحق أن يظهر عليك ما خفي على ساير الورى، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾[1].

عبرة

ومن هؤلاء من يرجع عن هذا الطريق قبل أن يستحكم فيه الجهالة، ويتمكن من قلبه الضلالة، لما يناله من الحيرة والارتياب، إذ لا يهتدي في كثير من عقايده إلى الرشد والصواب، كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب.

---

(١) سورة طه الآية: ٦٨.

وربما يكون رجوعه بعد انقضاء أكثر عمره، وانصرام معظم دهره، وبطلان استعداده لتحصيل اليقين، وخروجه عن جملة المسترشدين. فيتندم حين لا ينفعه الندم، ويتأسف حين لا يغنيه الأسف. ﴿ءالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] من الذين كانوا بوراً. فألحق بالذين يقولون ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً﴾[2].

توبيــخ

ومنهم من يصرف عمره في تدريس مصنفات ليست في علم الدين، ولا مما يورث اليقين، وإن اشتبهت بأحدهما لدى الجاهلين.

لم يزل يسهر ليله ويستغرق نهاره في استنباط ما أراد مصنفوها من عباراتها، ويطلب شروحاً وحواشي يستكشف بها ما خفي من إشاراتها، كأنه حسبها من قبيل الوحي والتنزيل وما نزل به جبرائيل. ثم ليس له في تحقيق مطالبها مطلب، ولا له إلى

(١) سورة يونس الآية: ٩١.
(٢) سورة الحديد الآية: ١٣.

اختيار مذاهبها مذهب، ولا له إلى مصنف آخر في ذلك العلم ميل ولا هوى وإن كان أحسن منها، لأنه لم يرث من آبائه وأساتيذه بالعنعنة إلاّ ذاك، ولا وقف طول عمره إلا هناك.

وربما يجعل أحدهم تدريسها حرفة، يجلس لها في مدرسة سقيفة، ويأخذ على ذلك من الأوقاف وغيرها وظيفة، أولئك لم يتخذوا إلى تحصيل العلم سبيلاً. ﴿ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1].

إزاحة وهم

ومن هؤلاء الفرق من يحسب أنه إذا تميز من العوام بهذه الصنايع، وحصل له هذه النصايع، فقد فاق جمهورهم بمعرفة علم الدين، وبلوغه رتبة الكشف واليقين.

كلا بل هو في ذلك وهم سواء، وأفئدتهم جميعاً هواء. إن ذوق الوصال أمر، والتمني بالخيال آخر. إنهم عن المعرفة والمعارفة لمعزولون، وللمجالسة قوم آخرون. جل جناب الحق أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد. وكلّ يدعون وصال ليلى، وليلى لا تقرلهم بذاكا. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا

---

(١) سورة التوبة الآية: ٩.

جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[1] ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[2].

رمز

إن شجرة العلم يانعة، وقطوفها دانية، وثمارها باسقة، وأنهارها دافقة. ظلها ممدود، وماؤها مسكوب، فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وتحتها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

إنارة

ليس العلم بكثرة التعلم وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه.

وذاك لمن استعد للاهتداء بتهذيب الأخلاق، وتجلية باطنه للإشراق وفراغ القلب وجمعية اللب، والتجافي عن دار

---

(١) سورة محمد الآية: ١٨.

(٢) سورة محمد الآية: ١٧.

(٣) سورة المائدة الآية: ٥٤.

الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والتأهب للموت قبل نزوله، ورياضة النفس بالخمول، والتورّع عن الفضول، والإعراض عن الدنيا وما فيها، وتركها لبنيها. وأصل ذلك كله تقوى الله. ﴿واتَّقوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

إكمـــال

فلا أقسم برب المشارق والمغارب، وواهب الرغائب والمآرب، أن العلم الحق وحق العلم لا ينال بالهوى، ولا يوصل إليه بالهوينا.

لا بد فيه من متابعة الشرع من أبوابه، والتأدب بآدابه، والإتيان بالسنن، ثم الصبر على البلايا والمحن، وملازمة الذكر، ومداومة الفكر، والتخلي عن الشهوات النفسانية، والخواطر الشيطانية، وجعل الهموم هما واحداً مع إخلاص النية، وصفاء الطوية، والعمل بما يتعلمه شيئاً فشيئاً، ومراقبة النفس آناً فآناً حتى يصير العلم عياناً، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، ثم منه إلى حق اليقين ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

﴿لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] .

إفـــادة

بتصحيح البدايات تنال الغايات، وبتأسيس القواعد تعلو السريات. **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّـنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ﴾**[2] .

فعن الله فاعقل، وعن رسول الله فاسمع. **﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِـعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾**[3] **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾**[4] **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾**[5] .

ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طلب نفيساً خاطر بالنفس.

إذا شام الفتى برق المعالي فأهون فايت طيب الرقاد

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩ .

(٢) سورة التوبة الآية: ١٠٩ .

(٣) سورة النساء الآية: ١١٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٥٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية: ٣١ .

من كان لله كان الله له، من لزم باب الله أفلح، ومن سعى في مرضاة الله أنجح، ومن اتَّجر في سوق الله ربح، وهذا يا أخي شيء لا ينال إلاّ بفضل الله ورحمته ﴿وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

إفاضـــة

هذه الجادة فأين السالك، هذه الرغايب فأين الطالب، هذا قميص يوسف فأين يعقوب، هذا طور سينا فأين موسى، هذا ذوالفقار فأين أبو الحسن الكرار.

ليس كل من هم سلك، ولا كل من سلك وصل، ولا كل من وصل تمكن، ولا كل غاد نحو قصد يناله، ولا كل من زار الحمى سمع النداء. وإنما هي عنايات أزلية، ومواهب ربانية، جرت في الأبد ما جرى في الأزل ومن سلب خلعة القبول أزلاً لم يكن لها لابساً أبداً.

علـــى مثـــل ليلـــى يقتـــل المـــرء نفســـه
وإن بـــات مـــن ليلـــى علـــى اليـــأس طـــاويـــاً

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠٥.

و ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾[1] ﴿وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ﴾[2] .

إستبعـــاد

واعجباه سبيل كان آدم في سلوكها ينوح، ورمي فيها بالحجارة نوح، وقذف في النار خليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس ذا حنين، ولبث في السجن بضع سنين، وذهب بصر يعقوب، وضني بالبلاء أيوب، ونشر بالمناشير زكريا، وأفرط داود في البكاء، وتنغص في الملك عيش سليمان، وتحير برد لن تراني موسى بن عمران، وذبح الحصور يحيى، وهام في الفلوات عيسى، وشج جبين المصطفى وكسر رباعيته في شدة الأذى، وأصيب قرن المرتضى، وسُمّ الحسن مرة بعد أخرى، وقتل الحسين بكربلا، وابتلي أهل البيت بأنواع البلاء، ونحن نطلبها بالرسم والمقال، ما أشبه هذا بالمحال، بل لا بد في طريق الوصال من تحمل الأثقال. ﴿الم * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *

---

(١) سورة الصافات الآية : ٦١ .

(٢) سورة المطففين الآية : ٢٦ .

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[١].

أول قدم في الطريق بذل المهجة، ثم سلوك المحجة.

بـــدم المحـــب يبـــاع وصـــالهـــم
فـــاسمـــح بنفســـك إن أردت وصـــالا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

إفصـــاح

إن جواهر العلم لمكتومة في زوايا قلوب العارفين، وإن درر الحكمة لمكنونة في أصداف صدور العالمين، لو اطلع على شيء منه أوثق إخوان أحدهم لكفره، ولو وجده هو أهلاً لذلك لأخبره ووقره، ولو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، وإن

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ١، ٢، ٣.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١١.

ههنا لعلماً جمّاً لو أصبت له حملة.

إنّــي لأكتــم مــن علمــي جــواهــره
كيــلا يــرى الحــق ذو جهــل فيفتتنــا
وقــد تقــدم فــي هــذا أبــو حســن
إلــى الحسيــن ووصــى قبلــه الحسنــا
يــا رُبَّ جــوهــر علــم لــو أبــوح بــه
لقيــل لــي أنــت ممــن يعبــد الــوثنــا
ولاستحــل رجــال مسلمــون دمــي
يــرون أقبــح مــا يــأتــونــه حسنــاً

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان» **﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[1].

---

(١) سورة يونس الآية: ٤٢، ٤٣، ٤٤.

فصــل

إن قوماً فيما مضى لم يروا العمل شرطاً في تحصيل العلم ونيل اليقين، ولا الأدب ضرورياً في الاتصاف بصفة الكاملين، بل لم يعرفوا الفرق بين العلوم النافعة في طريق معرفة الله واليوم الآخر وبين ما لا مدخل له في الدين، فتركوا العلوم النافعة واشتغلوا بالسموم الناقعة، بعد أن أماتوا سنناً وأحيوا بدعاً، وتفرقوا فيما أحدثوه شيعاً.

قد رفضوا الجمعة والجماعات ودانوا بالرسوم والعادات. استحلوا من الشرع محارمه، وطمسوا معالمه. قد لبسوا الطيالسة والبراطيل، وركضوا في ميادين الأباطيل، بعمايم عالية، وجماجم خالية. **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾**[1].

قد عبدوا الأهواء أوثاناً، واتبعوا ما لم ينزل به سلطاناً، حتى لم يبق بينهم من الدين إلا اسم، ولا من الإسلام إلا رسم، ولا من القرآن إلا رقم، ولا من العلم إلا وسم. همتهم بطونهم، ودينهم أموالهم. لا بالقليل يقنعون، ولا بالكثير يشبعون **﴿وَلَوْ**

---

(١) سورة مريم الآية: ٥٩.

نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1].

تحميق

ومنهم من يحسب أن اشتغاله بتحصيل العلوم العقلية يغنيه عن الإتيان بالآداب الشرعية والسنن النبوية، والمواظبة على الطاعات، والمحافظة على الجمعة والجماعات. بل ربما يزعم أحدهم أن الشرايع أو أكثرها إنما هي للعوام والأغبياء، وإنه من الخواص الأذكياء لا يحتاج إلى تجشم ذلك وإتعاب نفسه في هذه المسالك.

هيهات هيهات، ذهب من عمره ما ذهب وفاته ما فات، لا يحصل له العلم الحق النافع إلا بالعمل بالشرايع، ولا يهتدي إلى أصناف المعارف والأسرار إلا برياضات الأبرار، أيظن المغرور الأحمق أنه لغنيّ عن النبي، والله إنه لغويّ غبي، وإنه لشقي شقي، ضال عن صراط الهدى. **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾**[2].

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٠.

(٢) سورة طه الآية: ٨٢ لكن نص الآية: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى».

تقريــع

ومنهم من يحسب أنه بلغ من العلم مبلغاً لا يؤاخذه الله بذنوبه وخطاياه، بل تقبل شفاعته في براياه لكرامته على الله، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا.

أيها المغرور إن كان علمك متعلقاً بالعمل ولا تعمل بل تحمل معه من الذنوب أوزاراً. فمثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وإن كان معرفة الله فرأس الحكمة خشية الله، وإنما العلماء الحق حلماء حكماء أتقياء. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

فضيحة

ومنهم من يعمل بعلمه في الطاعات الظاهرة ولكنه لم يتفقد قلبه ليزكيه عن رذايل الأخلاق القاهرة، فهو مشحون بالحسد والكبر والرياء، وإرادة السوء بالأقران والشركاء. فإن زعم أنها إن خفيت عن الخلق بضائر، فستظهر على رؤوس الأشهاد يوم تبلى السرائر. ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا

---

(١) سورة فاطر الآية: ٢٨.

مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1] .

تخجيــل

ومنهم من يزعم أنه بريء في أخلاقه من أمثالها، لأنه أرفع عند الله من أن يبتليه بأرذالها، وإنما يبتلي بها العوام، دون من بلغ مبلغه في العلم والمقام.

فإذا ظهر عليه من نفسه لشيء منها مخايل هيأ لها من التأويل محامل، وأولها إلى الخير والإحسان، وعند الامتحان يكرم المرء ويهان.

ترى أحدهم إذا عثر على عثرة من عثرات أحد إخوانه أخذ يقع فيه ويسلقه بلسانه، بل لا يزال دأبه أن يتطلع غيوبهم، ويتتبع عيوبهم. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[2] .

تدقيــق

ومنهم من تنزه عن الأمرين، وتبرأ من أكثر الشين. إلا أنه بقيت في زوايا قلبه من مكايد الشيطان خفايا ومن خدايع النفس

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة المائدة الآية: ٤١.

خبايا. تراه يسهر ليله في جمع العلوم وترتيبها، وتحسين الألفاظ وتزيينها، زعماً منه أن ذلك للإرشاد، وحسن التأثير في الرشاد. ولعل باعثه الخفي طلب الذكر في العباد، وانتشار الصيت في البلاد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

تثريب

ومنهم من يتزهد فيقنع في الملبس والمطعم بالشملة والشعير، وفي المسكن بالمسجد والحصير، زعماً منه أنه أدرك رتبة الزهاد، وأنه فاق العباد، مع رغبته في الجاه والرياسة، بالعلم والزهد والكياسة، فترك أهون الأمرين، بأعظم المهلكين، إذ باغي الرياسة لا يخلو من كبر ونفاق، أو رياء وشقاق.

فإن لم يطلب الرياسة فربما يتطاول بذلك على الأغنياء، وينظر إليهم بعين الازدراء. يخشن معهم الكلام، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم من المقام، اتكالاً على فضائله واعتماداً. ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً﴾[2].

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٤.

(٢) سورة القصص الآية: ٨٣.

ملامـــة

ومن الناس من سمى الإمساك عن بيان الحق في المسائل الشرعية بعد وضوحه تورعاً وصلاحاً، ورأى تضييع حقوق الناس وتعطيل أحكام الله تخلصاً من الإثم وفلاحاً.

إذا سئل عن مسألة وضح لديه دليلها، وبان عند سبيلها، أمسك عن الجواب وسماه بالتقوى، زعما منه أن الإمساك منه أقرب إلى الصواب من خطر الفتوى.

كأنه لم يسمع قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[1] .

وإذا رأى مال يتيم أو غايب أو وقف في معرض التلف، أظهر التورع وتلبس القشف، كيف أتدنس بمال الطفل وإني أخاف منه الوقوع في الإثم، أو كيف أتصرف في الوقف ومال الغايب وإنه بئس الإثم.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٩ .

ولا يعلم أن تركه في محل الضياع وإبقاءه في أيدي الفساق عين العصيان. ألم يقرأ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1]. إنه لو اتقى الله لعمل بما أمر الله ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. وإن كنتم مرائين فالمرائي ليس بمفلح. ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخوانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[3].

تقبيـــح

ومـن الناس من يزعم أنه بلغ من التصوف والتألـه حـداً يقدر معـه أن يفعـل مـا يريد بالتوجه، وأنـه يسمـع دعـاؤه فـي الملكوت، ويستجاب نداؤه في الجبروت.

تسمى بـالشيـخ والـدرويش، وأوقـع النـاس بـذلـك فـي التشويش، فيفرطون فيه أو يفرّطون. فمنهم من يتجاوز به حدّ البشر، وآخر يقع فيه بالسوء والشر.

يحكـي مـن وقايعـه ومناماتـه مـا يوقـع الناس في الريب،

---

(١) سورة المائدة الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٢٠.

ويأتي في أخباره بما ينزل منزلة الغيب.

ربما تسمعه يقول: قتلت البارحة ملك الروم، ونصرت فئة العراق، أو هزمت سلطان الهند وقلبت عسكر النفاق، أو صرعت فلاناً يعني به شيخاً آخر نظيره، أو أفنيت بهمانا يريد به من لا يعتقد فيه أنه لكبيره.

وربما تراه يقعد في بيت مظلم يسرج فيه أربعين يوماً، يزعم أنه يصوم صوماً ولا يأكل فيه حيواناً ولا ينام نوماً.

وقد يلازم مقاماً يردد فيه تلاوة سورة أياماً، يحسب أنه يؤدي بذلك دين أحد من معتقديه، أو يقضي حاجة من حوائج أخيه.

وربما يدعي أنه سخر طائفة من الجنة، ووقى نفسه أو غيره بهذه الجنة. ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[1].

تبديـــع

ومنهم قوم تسموا بأهل الذكر والتصوف، يدعون البراءة

---

(١) سورة سبأ الآية: ٨.

من التصنع والتكلف، يلبسون خرقاً ويجلسون حلقاً. يخترعون الأذكار، ويتغنون بالأشعار. يعلنون بالتهليل، وليس لهم إلى العلم والمعرفة سبيل، ابتدعوا شهيقاً ونهيقاً، واخترعوا رقصاً وتصفيقاً.

قد خاضوا الفتن، وأخذوا بالبدع دون السنن، رفعوا أصواتهم بالنداء، وصاحوا الصيحة الشنعاء. أمن الضرب تتألمون؟ أم من الرب تتظلمون؟ أم مع أكفائكم تتكلمون؟ إن ٱلله لا يسمع بالصماخ، فأقصروا من الصّراخ. أتنادون باعداً؟ أم توقظون راقداً؟ تعالى الله لا تأخذه السنة، ولا تغلطه الألسنة.

سبح تسبيح الحيتان في النهر، ﴿وَٱذْكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ﴾[1]، إنه ليس منكم ببعيد. (بل هو أقرب إليكم من حبل الوريد)[2].

داهيـــة

ومن الناس من يدعي علم المعرفة ومشاهدة المعبود، ومجاوزة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، ولا

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٠٥.

(٢) مقتبسة من آية قرآنية ونص الآية «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» سورة ق الآية: ١٦.

يعرف من هذه الأمور إلا الأسماء، ولكنه تلقف من الطامات كلمات يرددها لدى الأغبياء، كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء.

ينظر إلى أصناف العباد والعلماء بعين الازدراء، يقول في العباد إنهم أجراء متعبون، وفي العلماء إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي مقرب. لا علماً أحكم ولا عملاً هذب.

يأتي إليه الرعاع الهمج من كل فج، أكثر من إتيانهم مكة للحج. مزدحم عليه الجمع، ويلقون إليه السمع. وربما يخرون له سجوداً، كأنهم اتخذوه معبوداً. يقبلون يديه، ويتهافتون على قدميه.

يأذن لهم في الشهوات، ويرخص لهم في الشبهات. يأكل ويأكلون كما تأكل الأنعام، ولا يبالون أمن حلال أصابوا أم من حرام. وهو لحلوائهم هاضم، ولدينه وأديانهم حاطم ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا

يَـزِرُونَ﴾[1] ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2] ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُمْ مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[3] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[4].

عـلاوة

ومن هؤلاء من طوى بساط الأحكام، ورفض الفصل بين الحلال والحرام، وحل قيود الشرع عن عنقه وأَطلق. لا يحرمون ما حرم ٱلله ورسوله ولا يدينون دين الحق.

متعللين تارة بأَن الله غني عن الأعمال، وأُخرى بأَن التكليف إِنما هو لتطهير القلب عن الشهوات وهو أَمر محال، وأُخرى بأَن أَعمال الجوارح لا وزن لها عند الله، وإِنما النظر إِلى القلوب وقلوبنا والهة إِلى حب ٱلله، واصلة إِلى معرفة ٱلله، وإِنما

(١) سورة النحل الآية: ٢٥.
(٢) سورة العنكبوت الآية: ١٣.
(٣) سورة القصص الآية: ٤٢.
(٤) سورة البقرة الآية: ١٦.

نخوض في الدنيا بأبداننا، فلا يصدنا عن سبيل ٱلله عصياننا. كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون، إن أعمالك لنفسك أحتسبت، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت. وليس التكليف يقلع الشهوات، بل بانقيادها لحكم العقل والشرع بالرياضات، والأبدان تابعة للقلوب والشهادات مشايعة للغيوب أيها المغرور ﴿فَٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَٱلأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ ٱلشَّيطانُ إِلا غُرُوراً﴾[١].

آفـــة

ومـن الجهلـة مـن غلبـت عليـه الشيطنة والخيانة، وسلب الديـن والديانـة، فأخـذ يتشبـه بأهـل العلـم فـي اللبـاس والـزي والمنطـق، بعـد أن تعلـم شيئـاً مـن اصطـلاحـات الفقـه والنحـو والمنطق.

قـد أوتـي لسانـاً زلقاً سلقـاً، يتوسل به إلى جلوس الناس حوله حلقاً. يدرس ما لا يفهم من لا يفهم، لكي يظن به العلم من لا يعلم.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٦٣، ٦٤. لكن الآية «اذهب...» بدون الفاء.

له حسن محاورة مع الأغبياء، وجميل مجاورة للأغنياء يرفع بين يديه من الكتب ما كاد يخفى وراءها، يوهم به العوام أنه ملك علومها كما ملك شراءها، ينفق من صدقات الأموات ما يغني، على من إذا أعطاه يثني. كل من مات وله مال فهو رأس أوصيائه، وكل من نذر شيئاً في سبيل الله أو وقف هو من أوليائه.

يحسبه الجاهل من العلماء لما يرى من إفاداته، ويزعمه الغافل من الأسخياء لما يجد من رفاداته.

لم يحكم في العلم مسألة قط، ولم ينفق من ماله إلا على نفسه فقط، وربما يتصدى للفتوى والقضاء، والفصل بين الخصماء، فيصير من أهل كلمة التشنيع كما مضى.

فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن الهدى، يحسد أولي العلم ويتكبر على ذوي الحكم، يتملق مع الكبراء تملق الحاسد، وينفق بتملقه نفاقه الكاسد، يتصدر في المجالس بثياب فاخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾[1].

---

(١) سورة النحل الآية: ١٠٧.

ومن هؤلاء من يصد الناس عن سبيل الله حسب مقدوره، ويسعى طاقته في إطفاء نوره. يحول بين المؤمنين وإتيانهم الجمعة والجماعات، حسداً منه على أهل الطاعات، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

يقدر لصحة انعقادها شرايط بتلبيسه، ويدبر لهدمها التدبيرات بإبليسه. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[2] ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[3].

إذا رأى إمام قوم أو سمع بمؤذن مسجد صيّت، ﴿يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[4]. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ

---

(١) سورة الصف الآية: ٨، ٩.

(٢) سورة المدثر من الآية ١٨ إلى الآية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١١٨.

(٤) سورة إبراهيم الآية: ١٧.

﴿كَيْدَهُ ما يَغِيظُ﴾[1] .

وإذا رأى عمارة مسجد بالجماعة والتجميع، أصابه الغم وناله الألم، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وسقط في عذاب أليم، يتوارى أوقات الصلوات من القوم، ويود لو أخذه النوم، لكيلا يرى ذاك البلاء، ولا يسمع من مسجدهم النداء، ولو قدر لمنعهم كل المنع، وشنع عليهم نهاية الشنع، وسعى في هدم المسجد وخرابه، بل لم يذر شيئاً من ترابه (ضِرَاراً وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)[2] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَساجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰٓئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾[3] .

رعـد

ومن أهل العلم قوم استخفوا بالأمر بالمعروف وإقامة الطاعات، واستهجنوا تقلد إمامة الصلوات، كأنهم حسبوها عاراً، وعدوها ضعة وشناراً. أفلم يعلموا أنه من مناصب

---

(١) سورة الحج الآية: ١٥ .

(٢) مقتبسة من سورة التوبة الآية: ١٠٧ .

(٣) سورة البقرة الآية: ١١٤ .

الأنبياء، ومما لا يفارقه الأوصياء.

تركوها ورفضوها فتحملها الجهلاء، وتقمصها الأغبياء. فما عرفوا غايتها، وما رعوها حق رعايتها، بل تلاعبوا بها وتشاجروا عليها.

فربما ترى عدة منهم يشهدون مسجداً في آن واحد يرفعون أصواتهم بالتكبير للصلاة يتبادرون، كالذين قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، وعلى عقب كل من العوام أقوام له يتعصبون وعنه يذبون، بل وإلى من لم يتبعه يبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو يفقدون. ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾[2] (وَاتَّخَذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً)[3].

بــرق

ومنهم من اتخذ إلى الخير سبيلاً، وأقيم للناس إلى

---

(١) سورة المطففين الآية: ١٥.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥١.

(٣) مقتبسة من الآية ٢٣١ من سورة البقرة ونص الآية «ولا تتخذوا آيات الله هزواً».

الطاعات دليلاً. قد أتى بالسنن، ورفض البدع في غمار الفتن في ظاهر أطواره، وعلانية آثاره. فتقلد إمامة الصلوات، وتصدى لإقامة الجمعة والجماعات. إلا أنك تراه يقع في عرض مثله، ومن يقرب مرتبته من مرتبته، فيبتغي له المعايب، ويثلم في عدالته وتقواه بالمثالب. وهو غافل عن سقوط محله عن الأعين بهذا الشقاق والنفاسة، وانحطاط منزلته بذلك عن درجة استحقاق الرياسة. لا عند الخواص فقط بل وعند العوام، حتى يصير بذلك ضحكة اللئام.

أفلا يتدبرون عواقب الأمور وما لها، أم على قلوب أقفالها، أم تمكن الشيطان في سويداء قلوبهم فأذهلهم عن النظر إلى عيوبهم. ﴿لَبِئْسَ ما كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1].

فحص وهداية

إن كان غرض أحدهم من هذه الرياسة ترويج الدين وتأييد المؤمنين فلينبذ هذا الحطام إلى أخيه، وليسدد فاه من القول فيه، وليعنه على أمره ويماشيه، ليتأيد بهما جميعاً، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر حاشاه.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦٣.

والغرض من الجمعة والجماعات تأليف القلوب، وإزالة العيوب، وسلامة الغيوب. وبما صنعوا تحصل أَضداد ذلك، فهم فيه كمن بنى قصراً، وهدم مصراً. بل ينبغي لمن يؤثر عظته في هؤلاء ويقدر لمثل هذه الفتنة على النقض أن يدفع بعضهم ببعض. ﴿وَلَوْلا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

إستشهـــاد

أليس أَمير المؤمنين (صلوات ٱلله عليه) سلم الأمر إِلى أَبي بكر وكان يأتم به في صلواته شفقة على المسلمين لكيلا يتفرق كلمتهم. ولا ينشق عصاهم، ويكون شملهم جمعاً، ويكونوا لأحكام الدين سمعاً، مع ما في تسليم الأمر إِليه يومئذٍ من المفاسد ما لا يخفى ولا يحصى، إِلا أَنها كانت أسهل وأَقل بالنسبة إِلى تفريق الكلمة وشق العصا.

ونحن في هذه الأمور الجزئية أَولى بذلك لقلة مفاسده بالإضافة إِلى ما هنالك ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُواْ

---

(١) سورة الحج الآية: ٤٠.

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١] .

عقد وحل

ولعل قائلهم يقول: إن أمير المؤمنين (صلوات ٱلله وسلامه عليه) كان يتقي فيقال له:

فأنت فما يمنعك من ذلك، ومصلحة التقية موجودة ومفسدتها مفقودة، لجواز الاعتماد على قراءته في الصلوات، لوجود العدالة المعتبرة فيه كما دلت عليه الروايات، وشهدت به الاعتبارات. فإنه ساتر لعيوبه، متحافظ على زلاته في غيوبه، وبهذا القدر يحصل الغرض المطلوب من عدالته في الصلاة، فذره ونفسه في تقواه ودعواه ومعاملته مع ٱلله.

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٠٣ إلى الآية ١٠٥ .

وأيضاً فأَنت وهو في ذلك سواء، وهو عند نفسه **وعند** الناس كما أَنت عند نفسك وعندهم بلا خفاء، فدع عنك الوسواس، ولا تكترث بأَقاويل أَشباه الناس، وتعوذ بٱلله من الشيطان الرجيم وقل: بسم ٱلله الرحمٰن الرحيم.

قمــــع

ومن الجهلة من زعم أَن من حمل على كاهله أَعباء القدوة، وتحمل من الناس الأسوة فهو مرائي متصنع كايناً من كان ثم هو ليس بأهل للتصدر والإمامة، بل هو بذلك بمعزل عن طريق الاستقامة. فجعل هذا عذراً لنفسه في رفضه الجمعة والجماعات، وإضاعته رغايب الطاعات.

هيهات هيهات، أَفلا يعلم المغرور، أن كلتا مقدمته غلط وزور، لا وٱلله بل غره بٱلله الغرور. **﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ ٱللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾**[1].

---

(١) سورة فاطر الآية: ٨.

قــدح

ومنهم من اعتاد ترك فريضة أو فضيلة مدة لفقد شرط من شرايطها ولعدم معرفة له بها، ثم إذا وجد أو حصلت ثقل عليه رفض العادة، وكبر عليه الحرمان من تلك السعادة. فتراه حايراً بايراً، يقدم رجلاً ويؤخر أُخرى. وودوا لو يدهنون ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1] . لا يقدمـون عليهـا لمـا في قلوبهم من الريب ولا يحجمون عنها مخافة العيب، ولا بصيرة لهم فيها ولا يؤمنون بالغيب، وربما خاضوا مع الخائضين. ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[2] .

رد

ومنهم من أهمل الفرايض اشتغالاً بالفضايل أو البدع، وبذلك وقع فيما وقع وترك المهم لغير المهم، أو الأهم لغير الأهم، وربما يحرص على النافلة، ولا يحافظ على الفريضة، يفرح بصلاة الليل ولا لذة له في المكتوبات، ولا يتبادر بها أوايل الأوقات. لا يعلم المغرور أن ترك الترتيب في الخيرات من

---

(١) سورة التوبة الآية: ٤٥ .

(٢) سورة التوبة الآية: ٤٦ .

الشرور. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1].

تقطيع

ومن هؤلاء من تعمق في بعض الفضايل حتى خرج إلى العدوان، كالذي غلب عليه الوسوسة في الطهارة بإغواء الشيطان، فلا يرتضي بالمحكوم في الشرع بطهارته من غير ريبة، ويقدر الاحتمالات البعيدة في النجاسة قريبة. وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة في الحال، وربما يأكل الحرام المحض باليقين، ولو انقلب هذا الاحتياط لكان أقرب إلى الدين، ولكنهم ضلوا وما كانوا مهتدين و﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

طعن

ومنهم من غلب عليه الوسوسة في النيات، لا يدعه الشيطان أن يعقد نية صحيحة في شيء من الطاعات. بل شوش عليه حتى يحرمه الجماعات. وربما يخرج صلواته عن فضايل

---

(١) سورة النور الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٤٩.

الأوقات، وإن تم له تكبيرة بمماشاة من طويته، **فهو بعد في تردد** من صحة نيته، وقد يغير صيغة التكبير لشدة الاحتياط والاختباط، وذلك كله لجهله بمعنى النية وأنها ليست إلا انبعاث الطوية.

ولعل فيهم من يحسب أنه إذا أتعب نفسه هنالك، وتميز من العامة بذلك، فلا عليه أن لا يقبل على صلاة فيتمها من غير حضور، ولا يبتغي إلى الإقبال سبيلاً. **﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾**[1].

إزراء

ومنهم من يوسوس في إخراج الحروف من مخارجها لا يهمه إلا ما يتعلق بالألفاظ فيذهل عن معاني القرآن والاتعاظ، وصرف الهم إلى فهم أسراره، واستفادة أنواره، بل يفوته بذلك الخضوع والخشوع، بل وآداب السجود والركوع. أولئك ليسوا من صلاتهم في شيء **﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾**[2].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤٢.

(٢) سورة المجادلة الآية: ١٨.

نكيـر

ومنهم من يوسوس في صيغ عقود المعاملات وإن كانت دنيّة فضلاً عن الفروج، فيجتهدان يكون عربية ولو مع العلوج، فيلقنه الصيغة بجهد الاستطاعة فيأتي بها جاهلاً بمعناها على الشناعة.

أو يوجب عليه التوكيل من غير أن يكون له على شيء من ذلك دليل.

ثم يسعى أن تقع بقصد الإنشاء وصيغة المضيّ، وإن صدر من الكرد الغبيّ، من غير أن يستند فيه بشيء من القرآن والأخبار، مع أن الماضي موضوع للأخبار.

ثم يشترط مقارنة القبول للإيجاب من غير مضيّ زمان ولو قليلاً، مع أنه لم يجد على ذلك حجة ودليلاً، فإذا سئل عن الدليل أتى بالعليل، فتارة يقول: إن صاحب الشرع كان يأتي فيها بالعربي وبصيغة المضي. وتارة يقيسها على أذكار الصلوات.

هيهات هيهات، القياس عندنا باطل ولا سيما إذا كان مع الفارق، وصاحب الشرع لسانه لا يفارق. وقد ثبت إتيانه بغير الماضي بالأخبار، مع أن الأخبار بما أوقعه في نفسه غير ضار.

كلا وليسألن عن ذلك سؤالاً حثيثاً. **﴿فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾**[1].

إنكــار

ومنهم من يدفع الشر بالشر، يتتبع عثرات الناس لينهى عن المنكر.

ثم إذا ظهر زلل بتفحصه يطيش ويتغير، ولعله لا يعرف المعروف من المنكر.

بل ربما يكون إنكاره لغير المنكر، أو المشتبه أكثر، وسعيه في إزالته أثم وجهده أوفر.

بلى إن النهي عن المنكر فريضة، ولكن إذا ظهر لا يتكلف الإظهار.

وتغييره واجب ولكن بشرط العلم بالنكر والرفق في الإنكار، وإذا ستر صاحبه على نفسه فأنت أولى بالستر عليه، وٱذكروا يوماً ترجعون فيه إليه. ولعيوب إخوانكم فلا تحسسوا وأطيعوا ٱلله عز وجل ولا تجسسوا.

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٨.

أعجوبـــة

ومـن النـاس مـن يتعـرض لعرض قوم مضوا، ويقدح في أشخاص خلوا، من أهل المعـرفـة والعلم، الذين نطقوا بالحكمة وتزينوا معها بالحلم.

فتراه يتتبع لهم العثار، ويتشبث فيه بمتشابه الآثار.

تارة يزعم أنهم كانوا من المخالفين، وأخرى يظن أنهم قد انحرفوا عن الدين. كلا إن بعض الظن إثم، ثم كلا إنه بئس الإثم. وأنّى هذا وحسناتهم دراية، وما يزعم رواية، ومذهب العقلاء كذهبهم وذهابهم مستور، ومظهر خلاف الحق في زمن التقية معذور. بل هو بذلك مأمور، وكلام الأكابر ذو وجوه وسراير، وعلوم أهل المعرفة لا يحتملها أصحاب الظواهر. أما سمع هذا العايب: «شرار أمتي الباغون للبرءاء المعايب» ولعمري إنه لمن العجايب، أعرض لعقول أمثاله عرض أم في قلوبهم مرض؟ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٤٨.

وسـواس

ومن الناس من يشكو دهره ويعيب زمانه، كأنه حسب أن الدهر صرفه عن الكمال، أو الزمان أوقعه في النكال، وأنهما كانا فيما مضى من دورات الجنان، أو كانا بيد رضوان.

بلى إن الدهر محل الحوادث والغير، والزمان محط المنون والعبر، ألا إن الأمور فيهما متشابهة، وكر الدهور والأزمنة متقاربة. ليس بينها كثير بون، ولا تفاوت بيّن في الكون ولا للحال بالإضافة إلى الماضي تهافت. ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[1].

فإن زعم أن الأزمنة كانت قبل وجوده أحسن دايرة، فإنما غره عظم مسموع الدنيا بالنسبة إلى مبصرها بخلاف الآخرة.

وإن حسب أنها كانت في أوايل عمره أتم نضارة وأوفر غضارة، فمنشأ هذا الحسبان أن المرء إذا جاوز مقام التمييز والتبيين، وفرق بين الغث والسمين، وأخذ إلى الشيب في التقارب، وحصل له العبر والتجارب، فإنه يظن أن الزمان قد

---

(١) سورة الملك الآية: ٣.

تغير وفسد، وسوق الدهر قد خرب وكسد، ومزاجها قد انحرف عن الاعتدال، وسعادتها صغت إلى شقاوة ووبال. فجعل يذم الزمان، ويقع في الإخوان، وإنما التغير فيه وفي سيرته، من جهة عمارة سريرته، وانفتاح بصيرته فليتعوذ برب الناس ﴿مَلِكِ النَّاسِ * إِلٰهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ﴾[1].

تقويـــم

ومنهم من تقيد بعلم النجوم حتى أتخذ ذلك منهجاً قويماً، فلا يزال يحمل معه تقويماً، فربما يقدم ما ينبغي تأخيره، أو يؤخر ما يليق تقديمه. وربما يترك أمره سدى يصير فيه حيران ليس له هدى.

يـا مؤمنـاً بالتربيـع والتسديـس، ويـا معرضاً عن التسبيح والتقديس، وإن في الدين القويم لشغلاً عن الزيج والتقويم، وإن امرءاً جهل حال قومه، وما الذي يجري عليه في يومه، كيف يعـرف حـال الغـد وبعـده، ونحـس الفلـك وسعـده، وممـا يقـال ونحن نرى، إن الفال على ما جرى، فتفال بالخير في أيامك ولياليك، ولا تعادي الأيام فتعاديك، ولأمورك فاستخر الله،

(١) سورة الناس الآية: ٢، ٣، ٤.

وعندها فاذكر الله، فإنما هي بيد ربك مقدرات. ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ**﴾[1].

تلويم

ومنهم من اعتاد طرايف الشهوات، فيلازم الأسواق وبيوتها المسماة بالقهوات، يحن إليها حنين الطير إلى أوكارها، كأنه قد لبس[2] فيها أحقاباً، لا يسمعون فيها إلا لغواً ولا يقولون إلا كذاباً.

يمسون وهم سامدون، ويصبحون وهم سامرون، يعجبون ويضحكون ولا يبكون، يستنصفون ولا ينصفون. ﴿**إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾[3].

ركضوا في ميادين الغفلات، واستهانوا بالصلوات، واتبعوا الشهوات. للكذب سماعون، وللحوم المؤمنين أكالون،

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

(٢) العبارة وردت بهذا الشكل لكن الظاهر أنها اشتباه من الناسخ أو سهو والصحيح «كان قد لبث» بدل لبس. وهو واضح إذ هي مقتبسة من الآية الكريمة«لابثين فيها أحقابا».

(٣) سورة المطففين الآية: ٢، ٣.

وللدخان شرابون، وللحشيشة المنكرة المعروفة حراقون. ينشدون الأشعار ساهين، ويتفكهون بالأخبار لاهين.

يا هؤلاء تفقهوا في الدين، وأركعوا مع الراكعين. ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

شكاية

ومنهم من يصده عن تحصيل الكمال، واقتناء العلوم والأحوال، سلوك منهج الآباء والمربين، واتباع الأهل الأغرين، واستعظام مفارقة طريقهم، واستنكاف مجانبة فريقهم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾[2].

وهذا أقوى دواعي العصيان، وأشد علل الحرمان، وبه ضل الأكثر، وتضاعف الضرر.

أويمنعه عن الهدى أحكام البلد، والنشو بين أهله على فاسد المعتقد، فإن ذلك يورث إلفاً لازماً وخلقاً دائماً، يترادف

(١) سورة هود الآية: ٨٥. وسورة الشعراء الآية: ١٨٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٠.

فـريـده ولا يخلـق جـديـده، ويصـرفـه عـن الحـق اتبـاع الأكثـر والمعظم، والكون في جملة السواد الأعظم.

أويشغله عن الدين أمور المكاسب أو الاهتمام بالمناسب، فيذهله دنياه عن النظر في أخراه. ليس له وقت معلوم لكشف المكتوم.

أَويحمله على التيه والأنفة ، سكرة الثروة وغمرة القدرة.

أَويلهيه عن السعادات الآجلة التمتع باللذات العاجلة، وربما يحمله على ذلك على[1] محبة المذهب الأسهل استثقالاً للعمل، ومنشأ ذلك كله ترك مجالسة العلماء، واستماع أَقوال الجهلاء الأغبياء، ورفض العقليات والاقتصار على الخرافات والحكايات. ثم كلا سيعلمون﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .

عتـــاب

ومنهم من يقبل أول قول ورد على سمعه البكر ودخل قلبه

---

(١) الظاهر أن لفظ «على» الثانية هنا زائدة والصحيح حذفها.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.

الخلو، فيميل إليه ميل المتربص، ويعتمد عليه اعتماد المخلص. بل يتمسك به تمسك المحقق، ويسكن إليه سكون الواثق المصدق، حتى يمازج قلبه، ويخالط لبّه، ويصير له خلقاً باقياً، وطبعاً ثانياً، فجعل ينصره ويألفه، ويلهج بذم من خالفه، ويجهد نفسه في استخراج ما قواه، ويكد خاطره في تضعيف ما سواه، حتى أنه إذا سمع قول خصمه، وثبت نفسه إلى القدح فيه، وسارعت إلى الطعن عليه، سواء فهم مقالته أو لم يفهم، علم غرضه أو لم يعلم، وذلك لأنهم يحسبون أنهم على شيء، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾[1].

ذمر

ومنهم من يعتبر الحق بالرجال فيتبع من تميز بنقل حديث بلسان فصيح وإن لم يعرف الباطل من الصحيح، أو كثر دعواه وطال لسانه في فتواه، أو له صيت في الماضين وجلالة قدر في الغابرين، أو ذاع تصنيفه وشاع تأليفه بين أبناء الزمان، أو أثنى عليه من يتقرب إلى السلطان. فيحسن الظن به في كل ما قال

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٦.

وسطر، ويجعل ذلك دلالة على صوابه في جميع ما يأتي ويذر، فيصده ذلك عن الرأي الرشيد والقول السديد. ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[1].

زجـر

ومنهم من لا يريد بالعلم وجه الله سبحانه وإنما يقصد به العصبية والمراء والحمية للأهواء والتقدم والرياسة والافتخار والنفاسة، أو ليأخذ الوظايف من الأوقاف فيسألوا عن الدر بالأصداف. وربما يقرأ الإشارات والشفاء ليأخذ وظيفته أوفى، لا يوقظ في فعال، ولا يسدد في مقال، ولا يهتدي إلى صواب، ولا يرشد في مسألة وجواب. فيصرف عن البلوغ إلى الكمال. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[2].

نكايـة

ومنهم من يتبع المنافع الدنيوية في علمه ومذهبه، فإنها إذا تكثرت أثرت، وإذا أمكنت ملكت. فكم من نفس تركت ما في

---

(١) سورة إبرهيم الآية: ٣.

(٢) سورة الرعد الآية: ١١.

يدها وقلد في دينها من أنعم عليها ووصل إليها، أو من علت **كلمته** وكثرت نصرته، وتسلط لسانه وكثر أعوانه. وهذا **أشهر من أن** ينكر، وضل به كثير وكفر.

وربما يجتهد مجتهدهم في نصرة ما هواه لدنياه وإن لم يعتقده بل اعتقد سواه، بل ربما يصير حبه سبب اعتقاده من غير ريب، إذ حبك الشيء يعمي ويصم عن العيب. وفي هذا الباب حكايات وروايات وصلات وجرايات. **﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾**[1].

تأديـــب

ومنهم من يسده النسب عن تحصيل العلم والأدب، كأنه يحسب أن فضل أبيه أو أحد أجداده ينفعه في معاده، بل هو الكمال كل الكمال فيطلب به في المجالس الصدر، ويتوقع من الناس تعظيم القدر.

أيها الفاخر جهلاً بالنسب! إنما الناس لأم ولأب، هل تراهم خلقوا من فضة أم حديد أم نحاس أم ذهب، إنما العقل لفخر ثابت، وحياء وعفاف وأدب.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٧.

إن الفتـــى مـــن يقـــول هـــا أنـــا ذا
ليـــس الفتـــى مـــن يقـــول كـــان أبـــي

ففي اليوم الحق ليسوا بالنسب يتفاضلون ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

بليـــة

ومن أمثال هؤلاء من يأخذ من الأوقاف المخصوصة بذوي أوصاف من دون اتصاف، ثم يأخذ في الإسراف. وربما يظلم اليتامى أموالهم، أو يغصب الضعفة والأيامى مالهم، ثم أخذ يسرف في الإنفاق، وجعل يبذر في بناء الطاق والرواق، يربط الأشهب والأدهم، ويلبس الذهب والإبريسم، ويجعل علاوتهما السمور، ويزخرف البيوت وينجد الدور، زعماً منه أن رتبة الشرف تنال بالسرف، وأن مبنى الجود والكرم على الإتلاف والتلف.

أحلامهم رقاق، وأخلاقهم دقاق.

يا رهين الذمة اشتغل بفكاكها، ويا مهين الهمة أدرك

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠١.

نفسك قبل هلاكها. إن عرفت لك خصماً فأرضه، واجتهد في أداء فرضه. لا تحمل أوزاراً. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[1] أطلب الحلال بالوسايل، ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ﴾[2] (إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ)[3] ﴿إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[4].

فذلكـــة

ثم إن كلاً من هذه الفرق الضال عن سبيل الهدى، الآخذين سبلاً شتى ـ على اختلافهم في الآراء، وتشتتهم في الأهواء ـ بما عندهم مغرورون، وبأنفسهم معجبون، وبمن سواهم مستهزئون، وبما هم فيه مستهترون. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾[5] ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا

(١) سورة النساء الآية: ١٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٨٨.

(٣) نص الآية «إنه لا يحب المسرفين» وهي موجودة في الأنعام الآية: ١٤١ والأعراف الآية: ٣١.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٢٧.

(٥) سورة المؤمنون الآية: ٥٣، ٥٤.

﴿مُعْرِضِينَ﴾[1] . لا يرفعون إلى ناصح رأساً، ولا يذوقون من شراب التحقيق كأساً، بل إنَّما يتبعون أهواءهم ويقتدون آباءهم، يقتصّ بعضهم أثر بعض حثيثاً. و﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[2] .

نص علوي

ما كل ذي قلب بلبيب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ذي ناظر ببصير. فيا عجباه من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب. يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات. المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا. مفزعهم في المعضلات على أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه. قد أخذ منها فيما يرى بعرى وثيقات وأسباب محكمات. ﴿قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٤. الآية «ما تأتيهم من آية...».

(٢) مقتبسة من الآية ٧٨ في سورة النساء ونص الآية «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً».

(٣) سورة التوبة الآية: ٣٠.

نــص علوي

إنما بدو وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولى فيها رجال رجالاً. فلو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضعث فيمزجان ويجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

تصويــب

إنَّما البصير من رفع نفسه عن تلك الشيم الشنعاء، ورفض تلك البدع الفضحاء. فاستمسك بعروة الكتاب، وركب سفينة الآل، ونهج منهج الصواب في العلوم والأعمال، وأخلص نيته حسب مقدوره، وطهّر سريرته بقدر ميسوره. فحصّل طرفاً من العلوم وكشف له من السر المكتوم بقدر ما اتسع مقدرته، وعلى حسب ما تنال همته. ثم تصدى لنصر الدين وإحياء سنن المرسلين، وسعى في جمع شمل المؤمنين، بترويج الجمعة والجماعات، بل يتقلد إمامة الصلوات، والسعي في قضاء حاجة ذوي الحاجات بما قدر عليه، واهتدى إليه. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰٓئِكَ أَنْ

﴿يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(١) ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(٢) .

قبس علــوي

إن من أحب عباد الله إليه عبد أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به، فقرّب على نفسه البعيد وهوّن الشديد، نظر فأبصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذب فرات سهلت موارده، فشرب نهلاً وسلك سبيلاً جدداً، قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم إلاّ هماً واحداً انفرد به، فخرج عن صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الرّدى. قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها، فهو من اليقين بمثل ضوء الشمس. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣) .

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة الآية: ٥ .

إتمام

قد أحيى قلبه وأمات نفسه، حتى دق جليله ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة. ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، لم يستقر روحه في جسده طرفة عين لولا مكتوب الأجل. يُمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، عايباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور. نفسه منه في تعب، والناس منه في راحة. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة

مربحة يسّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

تقسيم صادقـــي

طلبة العلم ثلاثة فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل.

فصاحب الجهل والمراء مذمومان متعرض للمقال في أندية الرجال، بتذاكر العلم وصفة الحلم. قد تسربل بالخشوع، وتخلى من الورع، فدق الله من هذا خيشومه، وقطع منه خيرومه.

وصاحب الاستطالة والختل ذو خِب وملق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه. فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم. فأعمى الله على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر، قد تحنك

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٧ وسورة الزمر الآية: ٣٣.

في بُرنسه، وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه. فشدّ الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه. ﴿أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

تثليث علــوي

النـاس ثلاثـة: فعالـم ربّانـي، ومتعلم علـى سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

هلك خزّان المال والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا يبطل حججِ الله وبيناته. وكمِ ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عددا والأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم.

هجـم بهـم العلـم علـى حقيقـة البصيـرة، وبـاشـروا روح

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى.

أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقاً﴾[1].

وميض

لقد رمزت لك في طيّ هذه الإشارات، ومكنون هذه العبارات إلى الفرقة الناجية، والفئة الزاكية. فافهم إن أفقت، وحل الرمز إن أطقت. فاطلب دليلهم، واسلك سبيلهم، ولا أحسبك تكتفي بانتسابهم إلى الحق من المذاهب، فلا يذهبن بك المذاهب، فالمحجوب محجوب، والمصحوب مصحوب. ومن صحبته العناية الأزلية لم يبعد عليه الشقة، ولم يصحبه في طريقه مشقة، بل كل ما هو في حق غيره حجاب فله فيه إلى الله طريق وباب، ومن لم يرافقه التوفيق وقع في شرك التعويق، ومن لم

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٩. لكن نصها «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم» وليس «أولئك الذين أنعم».

يسبق له العناية عمى عن نور الهداية، ومن لا يتولى المالك فهو لا شك هالك، ومن لم يواصل فهو مهجور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[1].

ختـــام

قد استبان من هذه الكلمات، واستنار من هذه المقالات، إن فـي تحصيـل العلـم والأدب ومعـرفـة الطـريـق الأصـوب عنـاء وتعباً، ومقاساة مشقة ونصباً، إن لم يكن من الولي اللطيف معونة للعبد الضعيف. فافهم هذه العبارات والإشارات، فإن فيها تبصرة للمبتدى، وتذكرة للمنتهى.

وليكن فهمك عن الله، وأخذك عن الله، وسعيك لله، ولا تقف على الصور دون المعاني، ومع البنية دون الباني، ولا تشتغل عن الواحد بالمثالث والمثاني، ولا تبحث عما ليس في طاقتك، واعرف مقامك في سكرك وإفاقتك، واحفظ الأدب لئلا تقع في العطب، فإن الحقايق لا تعرف بالبحث أبداً. والسلام على من اتبع الهدى.

---

(١) سورة النور الآية: ٤٠.

هذا آخر الكلام في الكلمات الطريفة
وهـي مائة كلمة وافية لمصنفـه
شافيـة والحمـــد لله
أولاً وآخـــراً
طـاب ثراه.